جامعة حلب

عبور

إيمان

كل واحد منهم ترك بصمته الخاصة خلال تشكل شخصيتي.. جدتي ووالدي ووالدتي.. خطّوا لي بأفكارهم وأسلوب حيواتهم التي عايشتها عن قرب، مسارات ثلاث، فاكتسبت القوة، الطموح، والأخلاق.

لم أنتبه لتأثيرهم الكبير عليَّ حتى وقت قريب، زرعت جدتي فيَّ ثقتي بنفسي. والدي كان مسؤولاً عن تنشئتي كفنانة. أما والدتي، ورغم أنني كنت أرفض أسلوبها وطريقة عيشها في صغري، فأعترف أنها هي من صنعتني بأخلاقي وشخصيتي الخاصة التي أصبحت عليها الآن.

أنا من مدينة حلب، تربيت في طفولتي بمنزل جدي لأبي. بعد أن أنجبَتْ والدتي أخي الذي يصغرني، وبدأت تظهر عليها أعراض مرض نفسي. ذهبَتْ هي وأخي الرضيع لتسكن في منزل عائلتها حيث تستريح وتتلقى المساعدة وتخضع للعلاج. بقي والدي لوحده في منزلنا، وتكفَّلت جدتي بتربيتي في منزلها، حتى بلوغي عمر ست سنوات.

والدي فنان تشكيلي درس أصول الرسم في معهد، وكان موهوب جداً. عمله الأساسي كان في تيسير المعاملات العقارية. لديه شخصية قوية قد تدفعه إلى سلوك متعجرف وأناني أحياناً. فهو سليل عائلة ميسورة الحال، وتلقّى الكثير من الدلال في صغره. لكنه منحنا أنا وأخوتي الأربعة ما نحتاج، وفي مرات كثيرة، ما يفوق استطاعته. قد لا يشتري لنا ثياب العيد إن ضاقت به الأحوال المادية، لكنه في الوقت ذاته سيخضعنا لجميع الدروس الخصوصية والدورات التي تساعدنا في أن نكون متفوقين في المدرسة، وسيقدم لنا كل حاجياتنا التي تتعلق بالتعليم.. في هذا المنحى، كان والدي حاضراً دائماً.

صبر علينا.. وعلى مرض والدتي.

أمي جميلة جداً وصاحبة قلب طيب، والدها كان في السابق من الأثرياء، امتلك كروم فستق ومنازل كثيرة في حي سيف الدولة بحلب، لكنه خسر كل ممتلكاته فجأة، وتوفي بعد إفلاسه بفترة قصيرة.. فعاشت والدتي بقية سنينها في منزل عائلتها بحال من التقشف، حتى زواجها من والدي وهي بعمرٍ ١٨ عاماً.

لم تكن والدتي شخصاً متطلباً. لكن جدتي دائماً ما حثت والدي على شراء ما تحتاجه أمي، وما لا تحتاجه. حرصت جدتي على أن تمتلك كنّتها في كل المناسبات والفصول، أجمل حليٍّ الذهب وأفخم الثياب، وإذا لم يكن والدي يمتلك نقوداً كافية حينها، فتعطيه جدتي من مالها. ما كان مهماً لدى جدتي، هو ألا ينقص والدتي شيء.

أهدتني جدتي الكثير من الذهب أيضاً عندما كنت أعيش في منزلها. تلبسني الأساور والقلائد والأقراط، وتتفاخر أمام جاراتها وقريباتها وصديقاتها، بحفيدتها الشقراء، والتي "لا يليق الذهب بغيرها" حسب رأي جدتي. كان والدي الأخ الأصغر لثلاث إناث وشاب، وأنا ابنته الكبرى. فنشأتُ على المديح الدائم والدلال الذي لا ينضب

منها، وبين أفراد عائلة تميز الفتاة البيضاء على السمراء، وتعتبرها الأجمل. صرتُ متكبرة على من حولي، وخاصة على أختي التي كانت بشرتها سمراء.

منزل جدي وجدتي، كان طوال الوقت مليئاً بالزوار من الجيران والأقارب والأصدقاء والمحبين، معظمهم من كبار السن. تشربتُ أجواء جلسات المسنين في داخلي، وترسَّخ في قلبي عشقٌ لكل ما هو قديم. كنت أستمتع بالجلوس قربهم والاستماع لأحاديثهم.. هم يولونني الاهتمام والرعاية، وأنا أفهمهم جيداً، ودون أن أشعر بالفارق العمري بيني وبينهم، تلك السنوات الأربع نمّت في ذهني مفهوم أهمية العائلة الكبيرة والمتماسكة.

* * *

استقر وضع والدتي النفسي عندما بلغتُ عمر ست سنوات وعدتُ لأعيش في منزلي. وخلال تلك الفترة، كانت أمي قد أنجبت أخوتي التوأم أيضاً. الابتعاد عن جدتي ترك في نفسي فراغاً لم أستطع ملأه في منزل والدي. وهي أيضاً، كانت قد اعتادت على وجودي وتعلقت بي كثيراً، فارتأى والدي أن الحل الأمثل لتفادي حزني وحزن جدتي، هو أن أقضي أيام العطلة في منزلها.

صارت أيام العطلة متنفساً لي من قوانين والدتي، ومكاناً للهرب من ضرورة التمييز بين ما هو مسموح وما هو ممنوع. أفعل ما يحلو لي خلال أيام العطلة عند جدتي، وآكل ما أشتهي من طعام تعده لي جدتي خصيصاً، وأعتبره ألذ من الطعام الذي تعده لنا والدتي. تصطحبني جدتي في مشاوير ممتعة، بينما لم تكن لوالدتي حياتها الخاصة؛ تخرج قليلاً من المنزل.. لا تذهب حتى للتسوق، فوالدي كان هو المسؤول عن ابتياع

حاجيتنا من ملابس وأغراض أخرى.. كما كان يصطحبها في زياراتها الأسبوعية إلى منزل عائلتها.

كنت أذهب إلى مكتب والدي، أخربش على لوحاته التي يعمل على إنهائها. فيوبّخني مرات، ويشعر بالسعادة مرات أخرى. وبعد أن يأس من انتهاء حالة تطفلي على لوحاته، ارتأى أن يشتري لي معدات رسم خاصة بي من أجل أن أستقل بفني الطفولي، وأن أبتعد عن لوحاته. ومع مرور الأشهر، بدأت أتعلق بوالدي كثيراً، أقضي معه وقتاً ممتعاً، دون أن أستطيع التقرب من والدتي، التي لم تكن تناسبها تربية جدتي -حماتها- لي.

وعندما بلغت ١٢ عاماً، توفيت جدتي.

أصبحت حياتي تعيسة للغاية بعد وفاتها، ولم يتفهَّم أحد شعوري بخسارتها.. والدتي لم تستطع استيعابي، بل عاملتني بأثر سلبي بسبب ظنها بأنني أحب جدتي أكثر منها. كانت تراني نسخة مصغرة عن حماتها، فتنزعج إن لم أرغب بشرب الشاي مثلاً، لأن جدتي لم تكن تحب الشاي أيضاً.

لكنني لطالما كنت أُذكِّر والدّي بجدتي بالفعل، فأنا أشبهها بالشكل وبكثير من سلوكياتها. كانت حتى أسماؤنا متشابهة، أنا إيمان -بناء على طلب منها- وهي أمينة. وبسبب هذا الشبه، لم يكن والدي يستطيع تأنيبي بالقدر القاسي الذي كان يؤنب أخوتي به إن غضب منا. ولأنها أيضاً، أوصته بي قبل وفاتها.

عائلة أمي كانت دائماً ما تدفعها من أجل أنجاب المزيد من الأولاد، بحجة أن "الأولاد يربطون الرجل بزوجته"، وأن والدي لن يتركها، وهي كانت أصغر سناً وأقل وعياً من أن تنتبه إلى خطئها في الاستماع لكلامهم وتنفيذه.

بعد أن أنجبتني أمي، كان والدي قد طلب منها عدم إنجاب المزيد من الأولاد، لكنها حملت بأخي الذي يصغرني.. حاول والدي إقناعها بإجهاضه، لكن الطبيبة المشرفة عليها رفضت إجراء العملية لأسباب دينية وأخلاقية وصحية. وبعد ثلاث سنوات، حملت مرة أخرى، حاول أبي أيضاً أن يدفعها إلى إجهاض الطفل، فلجأت والدتي إلى والدته، فما كان من جدتي إلا أن هددته حينها بأنها سـ"تغضب عليه"، كان ذلك التهديد المكون من بضع كلمات، كافياً لأن يعدل والدي عن قراره مباشرة فأنجبت أخوتي التوأم. غير أنه اشترط ألا تنجب والدتي مرة أخرى. لكن بوفاة جدتي، خسرت أمي من كان يحميها.. وعندما حملت بعد ذلك، أجبرها أبي على إجهاض الطفل.

أمي وأبي لم يتفقا يوماً.. كانا مثل طاقة متعاكسة. وفي شؤون تربيتنا، يترك أحدهما الحبل مرخياً على آخره، بينما يشده الآخر على آخره أيضاً. ما كان يعتبر معقولاً بالنسبة لوالدي، تراه والدتي خاطئاً، والعكس صحيح.

هذا التناقض بينهما خلق أجواء مشحونة في المنزل معظم الوقت، وأثر سلباً على تربيتي أنا وإخوتي. وأدى أيضاً إلى ميلنا لآراء والدي المتساهلة في معظم الأمور. وليس فقط إلى التمرد على والدتي، بل وأحياناً إلغاء سلطتها كأم. فإن وافق والدي على أمر ما، يصبح رأي والدتي دون قيمة.

كان أبي يقول لي إنه سيكون موجوداً لدعمي دائماً، ويجب ألا يتدخل أحد بحياتي. لذا، عندما أرغب بالذهاب إلى أحد منازل صديقاتي، أو الخروج معهن -وهو أمر لم تكن والدتي توافق عليه- كان والدي يؤمِّن لي حجَّة غياب أمامها، ويقول لها إنني معه.

وبحكم شغف والدي بالفن، وانتباهه إلى أن الرسم يجذبني أيضاً، فكان يأخذني معه إلى معارض وأجواء مختلطة. وهذا أمر لم يكن يروق لوالدتي.

لم تكن والدتي بيت أسراري يوماً، حتى عندما عرفت أن لوالدي علاقة مع إمرأة أخرى، لم أخبرها، لكنها كانت تعلم في النهاية، لتبدأ بينهما المشاكل التي لا تنتهي إلا بإصابتها بانهيار عصبي. جربتُ مرة أن أخبرها بسر خلال فترة مراهقتي، لكنني كنت أتفاجأ بأن قصتي قد انتشرت بين جميع أفراد عائلتها، خالاتي وأخوالي وأولادهم وبناتهم. كانت تأخذ رأيهم في كل شيء، شمل ذلك أيضاً أموري الخاصة.

لكن هذا لا يعني أنني كنت أستطيع إخبار والدي بأسراري أيضاً. ربما ألجأ إليه دون أمي، عندما يكون لدي مشكلة ما في المدرسة وأطلب منه عدم إخبار والدتي بها، كثيراً ما ذهبت أمي إلى مدرستي ولم يصدق أحد أنها أمي، بل ظنوا أنها أختي الكبرى، بسبب جمالها وهيئتها التي تبدو أصغر من عمرها الحقيقي.

عدم وفاقي التام مع والدتي، لم يمنعني من الخوف الدائم بأن يتزوج والدي بامرأة أخرى غيرها بسبب مرضها النفسي الذي لم يكن يبدو أنها ستشفى منه تماماً. فلدى عدد ليس بقليل من أفراد عائلتها أمراض نفسية.. يُقال إن خالي قد توفي انتحاراً، قسم من العائلة ينفي انتحاره، لكن والدتي تعزو وفاته إلى مرضه النفسي بجميع الأحوال.

رأى بي والدي التميز الكبير. على عكس نظرته لأخي، رغم أنه كان متفوقاً بعلامات عالية، لكنه ولسبب ما، لم ينل يوماً الاستحسان الذي يستحقه من والدي. ربما لأن أخي كان معظم الوقت متوتراً وبأعصاب مشدودة وضعيف الشخصية، بسبب وعيه ونشأته على المشكلات المستمرة بين والدينا.. فمن جانبها، لم تلق عائلتي بالاً لاستيعاب همومه. أما أنا، فكنت قد تعودت على تلك المشكلات منذ صغري وتأقلمت معها، ولم أهتم لهما أو أتأثر بقدر أخي. كما أن تربية جدتي لي، جعلتني أنضج قبل الأوان؛ لطالما سمعتُ من أحاديثها مع جاراتها وصديقاتها عن المشاكل بين الرجال وزوجاتهم. وعرفت أن والدتي مريضة، وأن والدي ربما كان بحاجة إلى

السَّكِينة التي لا تستطيع والدتي توفيرها له. لذا فقد كانت نظرتي لخلافات والديّ تأخذ منحى نحو اللامبالاة أكثر. فتأقلمت مع ظروف عائلتي أكثر من إخوتي الذين كانت لدى كل واحد منهم معاناته الخاصة، التي يخفيها في داخله، ولا يستطيع مشاركة أحد بتفاصيلها.

* * *

عندما كنت أنهي المرحلة الإعدادية، مرت والدتي بحالة انتكاسة نفسية. فاضطررتُ لتحمل مسؤولية البيت. ونتيجة لذلك تجاوزتُ حد الرسوب في الصف التاسع بعلامات قليلة، ودخلت الثانوية الفنية.

ولأن والدي لم يستطع دخول كلية الفنون الجميلة في شبابه، كان حلمه أن أتمكن أنا من دخولها.. كانت لدي رغبة عميقة في أن أحقق له هذا الحلم، خاصة وأنني نشأت بين لوحاته، ووسط جدران المعارض التي كان يقيمها ويزورها، وضمن مجتمع وأجواء أصدقائه من الفنانين. أحببت الرسم، وبرزت موهبتي جليَّة أمام والدي. وفي المرحلة الثانوية، خضعت لكثير من الدورات من أجل تنمية موهبتي، وحتى أتمكن لاحقاً من دخول كلية الفنون الجميلة.

لكن كان يجب علي أن أتجاوز امتحان قبول صعباً جداً حتى أستطيع دخول الكلية. في الفترة السابقة لذاك الامتحان، لم أكن أنام جيداً، اعتبرت أن ساعات قليلة تكفي لأستعيد طاقتي التي صرفتها في ساعات تنقلي بين الأساتذة الذين رتب لي والدي معهم جدولاً مليئاً بالدروس، فما إن أنتهي من درس إلا وألتحق بآخر، كان الأساتذة حينها يخرجون من منزلنا في الثانية صباحاً.

شارك في امتحان قبول كلية الفنون الجميلة أربعة آلاف طالب. هذا الامتحان كان سيؤهل الناجحين فيه لخوض امتحان آخر يُمكِّنهم من دخول الكلية. فضَّلتُ أن أذهب لوحدي إلى المركز المخصص للتقدم بالامتحان، ورفضت مرافقة والدي لي. دخلتُ وجلستُ إلى أحد المراسم، وجدتُ حذاء رياضياً منصوباً أمامنا، خلفه سُترة مشدودة من طرف واحد وبها كثير من التعرجات والتفاصيل الدقيقة، على السترة سفينة وأمواج مرسومة، وبجانبها حبة باذنجان.

بدأت بالرسم، وقف مراقبو الامتحان إلى جانب لوحتي، استرقتُ النظر إلى ردات فعلهم المعجبة وعيونهم المندهشة من إتقاني للرسم، استرقتُ النظر أيضاً إلى المشاركين الآخرين في الامتحان، الذين لم يكونوا بمعظمهم أمهر مني بالرسم. ازدادت ثقتي بالنجاح، وأنهيت لوحتي في ساعة واحدة تاركة ساعات ثلاثة متبقية كانت مخصصة للمتقدمين لإنهاء لوحاتهم، من أجل أن يتاح لي الوقت لرؤية صديقاتي خارجاً قبل حلول موعد العودة إلى المنزل. خرجت من باب القاعة، فوجدت والدي ينتظرني، مندهشاً من خروجي من مركز الامتحان في هذا الوقت المبكر.

لم أستطع التخفيف من موجة غضبه أو محو علامات الإحباط عن وجهه، رغم جميع محاولاتي في إقناعه بأن لوحتي ستكون من بين أجمل اللوحات. أخبرته أنني متأكدة من النجاح، لكنه لم يستطع التفكير حينها سوى أنني أضعت كل الجهود التي بذلناها أنا وهو في لحظة الطيش التي جعلتني أخرج مبكرة من الامتحان.

كان والدي يرفض بشكل قطعي فكرة التوسط لدى أحد معارفه الكثر في كلية الفنون أو من اللجنة المسؤولة عن تقييم اللوحات. بل كان يفضل أن أنجح في الامتحان وأدخل الكلية بمجهودي الخاص، كان يجب عليَّ أن أستحق ذلك.

مرت أيام قليلة، اتصل بوالدي أحد معارفه من اللجنة المسؤولة عن تقييم اللوحات،

وأخبره أنني قد نجحت في الامتحان، مع ٦٠٠ متقدم آخرين.

لم أرَ والدي سعيداً في لحظة أكثر من تلك اللحظة التي زف لي خلالها خبر نجاحي.

حلَّ موعد الامتحان الثاني، كان يجب أن نرسم جرّة مائلة وعلى فوّهتها فليفلة حمراء، ومن أسفلها حبات فاكهة وخضروات من بينها حبات ذابلة ومتيبِّسة. رسمتها، ونجحت في الامتحان، ودخلت كلية الفنون الجميلة.

أجمل أيام حياتي أمضيتها في الجامعة.. اعتبرني أصدقاء والدي من الأساتذة أنني أمهر منه في الرسم. استمر دعم والدي لي خلال سنوات دراستي، فكلَّف عدداً من الأساتذة بإعطائي دروساً خصوصية. وبذلك، كان اهتمامهم بي أكبر خلال الدرس، آخذ منهم الأسرار والخلاصات، وأتعلم بتركيز أعلى. مدحني الأساتذة دوماً، وقالوا لي إنني مبدعة وسريعة التعلم.. كانت علاماتي عالية، ومعدلي مرتفعاً، شعرت وكأنني نجمة لامعة في السماء.

حتى ذلك الوقت، لم تكن شخصيتي لتقترب من شخصية والدتي ولو قليلاً، لا أحمل شيئاً من طباعها، ولا أوافقها على أسلوب عيشها. كانت بالنسبة لي الإنسان المكسور المنغلق على نفسه، الذي يهمه تحليل وتحريم كل شيء دون تفكير. أنا أيضاً، كنت بالنسبة لها الابنة العنيدة التي لا تستمع لكلامها أبداً. لكنها لم تكف عن محاولة إرشادي، إلى أن تفتَّحت عيناي على أمور لم أكن قد لحظتها قبلاً. وبدأت أتحول إلى نسخة شبيهة لأمي، من الداخل والخارج، أصبحتُ مثلها.. أحاول أن أفكر بدلاً عنها، وأن أضع نفسي في مكانها، من أجل أن أعرف كيف تشعر.

كنت قد ارتديت الحجاب منذ صغري. لكن في الجامعة وقبلها بسنوات قليلة، كنت أضع مكياجاً صارخاً، وأرتدي ثياباً غير مناسبة بالنسبة لفتاة محجبة؛ ضيقة أو بألوان صارخة أو تشف عن أجزاء من جسدي. الأمر الذي لم يكن يعجب والدتي بالطبع،

فنتبِّهني إلى عدم ملائمة ملابسي، لكنني لم أكن ألقي لكلامها بالاً.. نتجادل، ويتطور النقاش إلى شجار.

لكنني تعرفت على فتاة ملتزمة دينياً في نهاية سنتي الأولى في الجامعة، بدأت أحضر دروساً دينية، وأداوم على مجالس علوم الدين في جامع الرحمن، صرت أنتبه إلى أسلوب حياتي الخاطئ، وأعترف أن والدتي كانت على حق، وأندم على معارضتي لها في السابق. اقتنعتُ أنه يتوجب على الفتاة أن تضع حدوداً في التعامل مع الشبان، وأن عليها أن تكون محتشمة ومؤدبة. ثم أخذتُ مكان والدتي في تنبيه أختي الصغرى عندما كانت تشتري ثيابها، وأوجه لها ذات التحذيرات التي كانت توجهها لي والدتنا.

صرت أرى أن الصورة التي كنت قد رسمتُها عن والدي طوال سنواتي العشرين، بأنه "شخص فريد لا مثيل له" كانت خاطئة. انتبهت أنه وخلال تربيته لي ولإخوتي كان يزرع في داخلنا مفاهيم خاطئة، وأن والدتي في الوقت ذاته كانت تحاول إصلاح ما تستطيع.

اكتشفتُ عيوب والدي الكثيرة، وأن عيبه الأكبر كان لومه الدائم لوالدتي على عيوبها ومرضها. وكيف كانت تصرفاته تُضعفها أكثر وأكثر، خاصة خلال فترات نكساتها النفسية.

لم أنسَ في ذلك الوقت أن والدي قد بذل مجهوداً من أجل أن نكمل تعليمنا في تأمين الأساتذة والدروس الخصوصية. لكنه لم يتابع دراستنا اليومية، بل كانت والدتي مسؤولة عنها، بينما يتباهى هو بإنجازاتنا ويعزو الفضل بنجاحنا أمام الناس له وحده، وإلى جانب ذلك، كان يؤنّبنا أمام إخوته على خطنا الرديء، ويحاول تهميشنا إن أخطأنا بأي شيء.

كنا نشعر دائماً أننا متهمون وخاضعون للمحاكمة. هذا الشعور كان يتسبب لي

بالخوف والارتجاف بمجرد وقوفي أمام المعلمة والطالبات في المدرسة من أجل أن أجيب على سؤال ما، حتى لو كنت أعرف الإجابة الصحيحة. طوال حياتي لم أستطع التحدث بثقة أمام جمع من الناس، حتى عندما كنت أشارك والدي بلوحاتي في معارضه، بل أرتجف وتدمع عيناي وأرتبك دون داع. صرت أحفظ مسبقاً ما يجب أن يقال أمام كل لوحة حتى لا تضيع الأفكار من رأسي، وفي محاولة لاكتساب مرونة في التعامل مع الناس، وكسر حاجز الرهبة من الحديث أمام العامة.

مسيرة حياتي ربما ساعدتني في التخلص من آثار تلك العقدة، لكنها لم تساعد إخوتي. فلم يكن خط أخي الرديء هو الشيء الوحيد الذي كان والدي يؤنبه عليه، بل صوته المنخفض أيضاً. يتهمه معظم الوقت بالضعف بسبب أبسط المواقف، فكان أسلوب والدي عاملاً أساسياً في ضعف شخصية أخي حتى بعد أن أصبح شاباً.

* * *

لم يكتفِ والدي بتحقيقي لحلمه بدخول كلية الفنون الجميلة، كانت رغبته أيضاً في أن أتخصص بمجال هندسة الديكور، وهو التخصص الذي يتطلب أعلى معدل يجب على الطالب نيله في الكلية.

أنا لم أرغب في دراسة الديكور، بل كنت مشدودة نحو الرسم الواقعي التصويري، كنت أحب أن أرسم الأشخاص. رغبتي الأخرى كانت دخول مجال النحت، وهو القسم الذي كانت والدتي تعتبره معيباً ومحرماً. لذا، قررت دخول مجال الأزياء.

سمعت أن أستاذة روسية الجنسية سوف تكون مسؤولة عن قسم الأزياء ذاك العام،

شعرت بالحماسة لأنني قد أستفيد من خبرات أجنبية قد تفتح عيني على مجالات أوسع، وتكشف عن رؤية مغايرة في مجال الأزياء. لكنني لم أتفق مع تلك الأستاذة في السنة الأولى.. لم يعجبها شيء مما أفعله. ثم فهمت مع مرور الوقت، أنها كانت تحاول أن تدفعني نحو العمل بشكل أفضل، وبدا لي أن الأمر لا يتعلق بما يعجبها أو لا، إنما كانت تحاول تشجيعي على بذل المزيد من الجهد. عندما اكتشفت أسلوبها، أصبحت واثقة من نفسي بشكل مبالغ به، فلم أحاول بذل الجهد الذي كان من المفترض أن أجعلها من خلاله تعجب بعملي، بل صرت مستهترة.

أستاذ آخر، كان يعتمد أسلوباً عديم الأخلاق بشكل صريح، فقد كانت الطريقة الوحيدة لنجاح الطلاب في مادته، هي إما دفع النقود له كرشوة، أو أن نتقبل نحن الفتيات تحرشه المباشر بنا.

حاول الأستاذ لمسي والاقتراب مني بأية طريقة، يضع يده على كتفي خلال حديثي معه، أو يلتصق بي إن كنت واقفة بجانبه. أخبرته أكثر من مرة أن تصرفاته غير مناسبة، وعندما فقد الأمل بالحصول على تجاوب مني، توعدني بعلامات متدنية، حتى لو لم يبق في عمره سوى يوم واحد!.

حاولت دراسة مادة الأستاذ المتحرش بشكل مضاعف، لكنه كان يعطيني علامات تقل عن حد النجاح بعلامتين أو ثلاث. حاول والدي التكلم معه دون جدوى، وعندما بدأت الثورة، ودخل الجيش الحر إلى حلب، وصار هناك مناطق تحت سيطرة النظام ومناطق خارجة عن سيطرته، ترك هذا الأستاذ الجامعة، وسافر إلى ألمانيا، وأنا نجحت في أول مرة أتقدم بامتحان المادة بعد سفره.

* * *

عائلة والدي بمعظمها كانت ضد النظام الحاكم في سوريا منذ أيام حافظ الأسد، وعندما أتى بشار وريثاً، لم يعجبهم أيضاً. كنت أستمع لأحاديثهم منذ صغري، علقت أفكارهم جيداً في رأسي، حتى تشاجرت مع معلمة اللغة العربية عندما كنت في الصف الثامن، كانت تعطينا درساً عن حرب "تشرين التحريرية". جادلتُها، قلت لها إننا خسرنا الحرب، وبعنا الجولان للاحتلال الإسرائيلي.. فما كان منها إلا أن وبَّختني بقسوة، ثم اصطحبتني إلى غرفة المديرة لتكمل بدورها جلسة التأنيب والتقريع والتهديد بالفصل من المدرسة، كل ذلك بسبب قولي للحقيقة.

عندما بدأت الثورة في سوريا، كنت أدرس في الجامعة. أنا وستة فقط من أصدقائي في كلية الفنون من نؤيدها، كنت الفتاة الوحيدة والبقية ذكور من إدلب وحماة، معظم طلاب كلية الفنون كانوا مؤيدين للنظام، وبينهم جواسيس يراقبون التظاهرات ويلتقطون صوراً للمشاركين فيها، ويبلغون عن أسماء المعارضين ويخبرون عن أنشطتهم. لم نجد في كليتنا رفقاء يدعمون حراكنا، سنبقى مكشوفين إن انخرطنا بأي نشاط نحن السبعة، فلجأنا إلى المظاهرات التي كان يخرج بها طلاب الجامعات الأخرى، مثل الهندسة أو الطب.

وصل طلب من كلية العلوم متضمناً تهديداً إلى كلية الفنون، بوجوب إزالة صورتَي بشار وحافظ الأسد المعلقتين على لوحتين كبيرتين في الساحة الداخلية، لم يجرؤ أحد على نزعهما، فهاجم كليَّتنا طلابٌ من كلية العلوم، صاروا يرمون زجاجات عصير فتنفجر لدى تحطمها على الأرض. شعرت أنه من واجبي أنا إزالة الصور، وبدأت أخطط لفعل ذلك، لكن ورشة إصلاحات أزالت الصور، ربما لتخفيف احتقان الطلاب. فخسرتُ فرصة إزالتها ولم أستطع تغيير نظرة أصدقائي المعارضين، نحو كلية الفنون الجميلة.

أصبح الذهاب إلى الجامعة مصدر خوف لي، فأشعر أنني تحت التهديد بما أنني معروفة بمعارضتي للنظام.

كنت في الباص متجهة نحو مكان عملي في مركز لتعليم المهارات للأطفال، عندما وجدت شباناً مجتمعين ويقطعون الطريق بالسيارات من أجل أن يمنعوا رجال الأمن والشرطة من الوصول إليهم. وبمجرد نزولي من الباص، سمعتهم يهتفون "الله أكبر".. لم أستطع إكمال طريقي نحو عملي، قبل أن أنخرط في التظاهرة.. أصرخ معهم وأهتف بملء صوتي: "الله أكبر".

تظاهرة أخرى هجم علينا خلالها عناصر الأمن، فهربنا إلى أحد الباصات، وأنا كنت قد التقطت مقطع فيديو للتظاهرة، ليس من أجل أن أرسله لأحد، ولا من أجل أن أنشره في وسائل التواصل الاجتماعي، إنما أحببت أن أحتفظ لنفسي بذكرى منها. في الباص نزعتُ كرت ذاكرة هاتفي المحمول، صعد ثلاثة عناصر أمن، شعرت بخوف وتوتر شديدين، لكن العناصر تجاهلوني، ووصلت سالمة إلى منزلي.

كانت المناطق المحررة من قوات النظام آمنة أكثر من المناطق التي يسيطر عليها. لأن منزل عائلتي كان قرب مبنى الأمن السياسي في حلب، كنا ننزح إلى منزل جدي الذي سكنته عمتي الأرملة بعد وفاة والديها. نجلس جميعنا في باحة المنزل، ومع انقطاع الكهرباء وانعدام وسائل الإضاءة إلا من ضوء خافت للمدفأة التي نتحلق حولها، نشعر وكأننا لوحدنا في جزيرة بعيدة حين يسود الهدوء ليلاً. يحكي لنا والدي عن أحداث عام ١٩٨٢ في حماة، تحاول عمتي إنهاء حديثه خشية من أن يسمعه أحد ما! رغم أننا في مناطق محررة.

إلى هذه الدرجة كان الرعب من بطش النظام مزروعاً في قلوب الناس!

وصل إلى والدي خبر بأن أحد ما كتب بي تقريراً أمنياً بسبب مشاركتي في التظاهرات

ومجاهرتي بمعارضة النظام، أخبره صديق له أنه يستطيع في هذه المرة سحب اسمي من المساءلة بسبب التقرير، لكن يجب علي أن أسكت، لأن المرة المقبلة لن تمر على خير!.

قلَّت مشاركتي في المظاهرات بناء على طلب من والدي، وبذلك لم أستطع لعب دور حقيقي في الحراك.

قال لي والدي إنه يتوجب علي ألا أضيع المجهود الذي بذلته حتى وصلت إلى هذه المرحلة من النجاح، وأنني أستطيع أن أفعل ما أريد، لكن بعد تخرجي من الجامعة. لم تعد عائلتي تسمح لي بالذهاب إلى الكلية سوى للضرورة القصوى، اقتصر خروجي من المنزل فقط في الذهاب إلى المركز الذي كنت أعمل فيه. وإلى منازل أقاربي الذين كنت أعطي دروساً خاصة لأطفالهم.

توقفت عن العمل عندما أصبحت في السنة الرابعة، من أجل أن أتفرغ لإنهاء السنة الأخيرة لي في الجامعة. ونصحني والدي باستخراج كشف علامات كإجراء احتياطي، لأن المدينة كانت آنذاك كما لو أنها على كف عفريت.

كان تاريخ الـ١٥ من كانون الثاني عام ٢٠١٢ عندما ذهبت للحصول على كشف العلامات، كان ذاك التاريخ يصادف أيضاً اليوم الأول للامتحانات الفصلية للطلاب. بحلول الساعة العاشرة صباحاً، كنت أتنقل بين غرف الموظفين من أجل إكمال الأختام والتواقيع والأوراق المطلوبة. ولم يبق سوى توقيع عميد الكلية، الذي لم يكن موجوداً.

نصحني الموظف بانتظار العميد حتى يأتي، فقررت استغلال ذلك الوقت برؤية أصدقائي وأساتذتي، وقبل ذلك، توجهت نحو الطابق السفلي من أجل إصلاح حجابي.

سمعت فجأة صوت تكسّر مرايا، توقعت أن قذيفة هاون قد نزلت في مبنى الجامعة،

لكنني استدركت أن ذلك كان احتمالاً بعيداً، لأن نقاط تمركز الجيش الحر كانت بعيدة عن منطقة الجامعة آنذاك. هممت بالخروج من الطابق السفلي، فسمعت صوت صاروخ وانفجار، صعدت على الدرج، بينما كان الطلاب يتوجهون إلى أسفل، يصرخون ويبكون وبعض منهم مصاب وينزف دماً. شعرت بخوف كبير، وبشعور غريب بالفرح في الوقت ذاته.

قلت لنفسي: "أخيراً! وصل الجيش الحر إلى الجامعة".

لم أستطع الاستفسار من أحد لأفهم ما يحدث في الخارج حقيقة، فكل من حولي كانوا شبيحة ومؤيدين للنظام، وسيقولون بالطبع إن ذلك من فعل "الإرهابيين". شعرت فجأة بجمود في أفكاري وتبلد في مشاعري، وبصعوبة في التنفس والكلام. تزايدت أعداد الطلاب الذين ينزلون إلى أسفل من أجل الاحتماء من الانفجارات، وصار الازدحام خانقاً.

في الجهة المقابلة، كان الباب المؤدي إلى قسم النحت مغلقاً، كسره شبان وتمكنا من الخروج.

رأيت رجالاً يرتدون ثياباً عسكرية ويحملون أسلحة يقفزون باتجاهنا من سور كلية الآداب، أكملت في ذهني الرواية التي أحببت أن أصدقها: "أتى الجيش الحر أخيراً إلى كليتنا". قَطعت أفكاري كلمات بلهجة علوية، وصراخ شخص ضخم علينا، يأمرنا بالابتعاد والهرب باتجاه كلية الآداب.

عرفت أنهم ليسوا عناصر من الجيش الحر. إنما شبيحة وعساكر.

خرجنا من باب الكلية نحو الشارع، لكنني حينها لم أكن قد عرفت بعد ما حدث بالضبط، فعدت أدراجي نحو مكان الانفجار علّي أجد جواباً.

بدأت رائحة الحرائق والدخان والجثث ومعالم الخراب تزداد وضوحاً كلما اقتربت أكثر، كانت الأشلاء على طول الطريق، أيد وأرجل وجثث محروقة وطلاب مصابون بشظايا.. يبدو أن سيارة انفجرت هنا.

لم أكن قد رأيت بأم عيني مثل هذا المشهد الحي الذي يحمل كل هذا الموت من قبل. لم أشاهد ذلك حتى في أفلام السينما.

أكملت طريقي.. انقبض قلبي عندما أحسست أن قدمي تنزلق فوق شيء على الأرض، وعندما نظرت إلى أسفل، وجدت نفسي أدوس على شعر فتاة محروقة، تجمدت دون أن أستطيع رفع ناظري عنها.. سألني عسكري إن كنت أعرفها! لكن كان من المستحيل تمييز ملامحها حتى لو كنت أعرفها، بسبب الحروق التي شوهت معالم وجهها. قال العسكري لي وهو يتفحصها دون أن يرف له جفن: "هذا سيكون مصير كل إرهابي وقف ضد البلد!"، كانت جملته تعبيراً واضحاً عن مقولة شبيحة النظام التي لطالما رددوها: "الأسد أو نحرق البلد"، لكن هذه المرة، شعرت أن تلك المقولة موجهة لي أنا! كتهديد بأنني قد ألقى المصير ذاته، إن فكرت بمعارضة الأسد.

وصلت إلى مركز الحادث، لم تكن سيارات الإسعاف والإطفاء قد أتت بعد. إنما، سيارة التلفزيون كانت واقفة بين عدد من السيارات المحروقة. كان الإعلامي شادي حلوة يبحث عن طلاب ليتحدث إليهم. هكذا أتى فجأة وبهذه السرعة قبل سيارات الإطفاء والإسعاف، بدا لي وكأنه خلق من العدم، وكأنما الأرض انشقت وأخرجته من جوفها.. الطلاب كانوا خائفين جداً، لكنه لم يكن كذلك أبداً. يردد بنشاط أمام الكاميرا عبارات يقول فيها إن الحادث كان بسبب انفجار سيارتين مفخختين كانتا مركونتان عند طرف الشارع القريب من الكلية، رغم أن الانفجارين كانا في مكانين بعيدين عن بعضهما نسبياً، لم تكن نقطة تفجير واحدة، كانت إحداها في السكن الجامعي، والأخرى في كلية العمارة، وهو كانت يكذب ببساطة.

لم أستطع هذه المرة أن أجادل بالحقائق كما فعلت عندما كنت في المرحلة الإعدادية، التزمت الصمت، وحاولت أن أتعامل مع أعراض الخوف والرعب التي أصابتني، كنت متشنجة، أرتجف، أبحث عن أي أحد أعرفه، حتى رأيت أحد أصدقاء والدي، الذي اقترب وسألني إن كنت بخير، وعم أفعله في هذا المكان، بقيت صامتة ومذهولة.. حاول أن يسندني من أجل أن نبتعد عن المكان، سألته إذا كان قد رأى ما حدث، لأنني حتى تلك اللحظة لم أكن قد استطعت ربط الأحداث ببعضها، أتذكر أنني سمعت صوت طائرة، ثم انفجار، ثم رأيت الطلاب مصابين، لكنني لم أر شيئاً بعيني. قال لي إن طائرة "سكود" كانت تحلق في السماء قبل الانفجار، وأنه اعتقد بداية أن الصوت كان بسبب اختراق الطائرة لجدار الصوت..

- لكننا في بؤرة منطقة سيطرة النظام! من الذي قصفنا؟

- لا أعرف.. لكنني رأيت صاروخين ينزلان من الطائرة من نافذة قاعة الامتحان.

ركبنا في سيارته من أجل أن يوصلني إلى المنزل، تذكرت عائلتي، حاولت الاتصال بهم من أجل أن أطمئنهم على نفسي وأطمئن عليهم.. لم يرد أحد، لا أبي ولا أمي ولا أخوتي. وصلت إلى جامع التوحيد الذي كان أقرب نقطة أستطيع الوصول إليها بالسيارة في الطريق إلى منزلي، ومن ثم يجب علي أن أمشي وأقطع الكثير من الحواجز حتى أصل.

قرب الجامع، وجدت ابن عمتي واقفاً، ابن عمتي وعائلته كانوا مؤيدين للنظام، سألني عن أحوالي وأحوال والدي، وعن "أحوال الثورة معنا"، قلت له إن بشار الأسد قصف جامعتنا قبل قليل، ثم تركته يكمل كلامه المليء بالأكاذيب، ومضيت.

خطر ببالي أن أتصل بأستاذ الفيزياء الذي كان من المفترض أن يكون في منزلنا من أجل أن يعطي درساً لأختي، قلت له إنني على قيد الحياة، لم أمت، ولم أصب بمكروه.

يبدو أنه أيضاً لم يعلم بما حدث، أنهيت المكالمة وأكملت طريقي.

كانت الكهرباء مقطوعة في حينا، فلم يعرف أحد شيئاً عن قصف الجامعة. ولم يعلم أهلي شيئاً عما حدث لي قبل أن أصل.

اكتفيت برواية سريعة وقدمت لهم رؤوس أقلام، لم أرد لقلق والدي علي بأن يزداد، لم أقل لهم أنني عدت إلى مكان الحادث، ورأيت الجثث المحروقة أمامي.

رغم كل ذلك، فضلت أن أقنع نفسي بأنني محظوظة، فمعظم من كان خارج الأبنية قتل أو أصيب أو رأى الناس تحترق أمام عينيه، حتى من كان في الداخل أصيب بشظايا، أو سقطت عليهم أجزاء من الجدران أو أصيب بفتات من الزجاج. أنا خرجت دون أي خدش بالطبع، لكن بصدمة نفسية بالغة، تركت في قلبي ندبة صعبة الشفاء.

تعددت الروايات بعد ذلك، هناك من قال إن النظام هو من قصف الجامعة، وهناك روايات من النظام نفسه قالت إنه طيار منشق قصف الجامعة.. هناك من قال إنها طائرة للنظام كانت قد استهدُفت من قبل الجيش الحر، بجميع الأحوال، كان كل شيء واضحاً، النظام كان يهدف إلى بث الرعب والخوف في نفوس السوريين، وأن يشعرهم بأنهم مهددون، وأن حيواتهم ليست ذات أهمية أمام جبروته وقوته وإجرامه الذي يمارسه في سبيل فرض سيطرته، حتى ولو كان ذلك من خلال قتلهم. كان يريد أن يضع حداً للتظاهرات المشتعلة التي خرجت في جامعة حلب.

كان رجال أمن النظام قد داهموا السكن الجامعي سابقاً، أرهبوا واعتقلوا الكثير من الطلاب، لكن تلك الضربة هي الأكثر دموية ووحشية بالنسبة لنا في ذلك الوقت.

كان ذلك التاريخ لحظة فاصلة، بين آمالي السابقة بأننا سوف نستطيع إسقاط الأسد، وبين إحباطي من تمكنه من تأديبنا، ودفعنا نحو التأكد بأنه كقاتل، أقوى منا بكثير..

شعرت باليأس من نجاح الثورة مبكراً، أيقنت أننا لن نتغلب عليه قريباً، كان ذلك بالنسبة لي من المستحيل حدوثه.

* * *

ازدادت صعوبة الأحوال المعيشية في حلب، كانت الكهرباء تنقطع عشر ساعات متواصلة، وفي الساعات القليلة التي تأتي فيها، نحاول إنهاء مهمات غسيل وكي الملابس، أو استخدام المعدات الكهربائية من أجل صنع الطعام، أو كعك العيد في أواخر شهر رمضان. كانت المياه إن توفرت تنزل باردة من الصنابير كالثلج.. لم تتوفر مياه الشرب بشكل دائم، فنلجأ إلى مياه الآبار القريبة. يذهب والدي وإخوتي الشبان لتأمين المياه من تلك الآبار ويملؤونها بالعبوات البلاستيكية، وبسبب عدم توفر الكهرباء أيضاً، لم تكن المصاعد تعمل، فننزل نحن النسوة لمساعدة الرجال في حمل العبوات إلى منزلنا في الطابق الثالث، ورغم أننا نجلب كمية كبيرة من المياه، لكنها لم تكن لتكفينا أياماً قليلة.

قبل بدء تلك الأزمات المعيشية، كان هنالك برنامج يومي نتبعه في المنزل؛ نجتمع سوية على مائدة الإفطار في التاسعة صباحاً، يذهب كل منا إلى شأنه. ولدى عودة والدي من عمله، نجتمع في الثالثة ظهراً لتناول الغداء، يرتاح أبي قليلاً، ثم يخرج إلى مكتبه في الساعة الخامسة، ولا يعود قبل الثانية عشرة بعد منتصف الليل.

بسبب انقطاع الكهرباء، لم يعد والدي يستطيع الذهاب إلى مكتبه مساء، كان مكتبه في شارع تجاري، يصير موحشاً ومعتماً بأكمله، قضى والدي فترة المساء في المنزل خلال تلك الفترة، فكثرت انتقاداته وتدخلاته في أدق وأبسط تفاصيل حياتنا في المنزل. أصبحت جملة "يلعن الأسد" لازمة مع كل أثر لمعاناتنا خلال اليوم، وشعورنا بأي نقص في مستلزمات الحياة الأساسية.

خلال تلك الفترة أيضاً، كان يجب أن أتقدم بمشروع تخرجي من الجامعة.

بسبب محبتي الكبيرة للأطفال، استوحيت فكرة مشروع تخرجي من فيلم "أليس في بلاد العجائب"، وحاولت تنظيم عرض أزياء يؤديه الأطفال فاستعنت ببنات عمتي

حيث ارتدوا الأزياء التي صممتها.

في السنوات السابقة كان يحق للطالب دعوة عشرة أشخاص لحضور جلسة تحكيم مشروع تخرجه، لكن في تلك الفترة لم يكن مسموحاً لنا أن ندعو أحداً، بحجة أن "إرهابيين قد يفجرون المكان".

كنت فخورة بنفسي، لأنني أول من يتقدم بمشروع عن أزياء الأطفال، لم يساعدني أحد من الأساتذة به، بل كان ثمرة جهد شخصي بالكامل.

جهزت مقطع فيديو مدته دقيقتان أشرح فيه عن الفيلم الذي لم يكن أحد من لجنة التحكيم يعرفه، وقدمت أيضاً نبذة عن عملي. لكن لم تكن هناك كهرباء من أجل عرضه على شاشة كبيرة، فاضطررت لعرضه على الحاسوب الخاص بي. لم ير أحد شيئاً بشكل واضح، ولم يفهموا عم أتحدث، كانت خيبة كبيرة.. لم أستطع تقديم مشروعي كما كنت أحلم، وحصلت على علامة ٧٣ من مئة.

ازداد إحباطي بعد تخرجي من الجامعة، خشيتي الدائمة من أن أحداً ما قد كتب بي تقريراً آخر وقدمه لأحد الأفرع الأمنية بسبب جدالي الدائم مع مؤيدي النظام، جعلني ألتزم المنزل حوالي عاماً كاملاً، تبددت آمالي وأحلامي بـ"تغيير العالم".. كان البلد كله على كف عفريت، والأخطار آتية لا محالة، عمَّ ركود مدقع، لم يعد هنالك ثياب في الأسواق، أغلقت معظم معامل وورشات تصنيع الثياب أبوابها، ولم تتح لي فرصة للعمل، فانحصرت اهتماماتي بمتابعة أخبار الثورة من خلال وسائل التواصل الاجتماعي.

لفتت نظري صفحة لشاب في "فيسبوك"، ينقل أخباراً مكثفة ويبدو أنها موثوقة عن كل ما يحدث في حلب من قصف أو تظاهرات أو اعتقالات، فأرسلت له طلب إضافة كصديق من أجل أن أبقى على اطلاع على منشوراته. ولأن الكهرباء والإنترنت لم

يكونا متوفرين دائماً، فقد كنت أتصفح "فيسبوك" كل يومين أو ثلاثة، أبحث مباشرة عن صفحة الشاب، أقرأ الأخبار التي ينشرها، وأسجل إعجابات على جميع منشوراته، من أجل أن تظهر لي في الصفحة الرئيسية، حسب سياسة "فيسبوك". وهذا يعني ظهور حوالي ١٨ إشعاراً بالإعجاب مني لديه دفعة واحدة.

أرسل لي الشاب مرة رسالة بالعربية الفصحى، يسألني فيها عم إذا كانت هنالك معرفة مسبقة بيننا، أجبته بالفصحى أيضاً: "لا أعتقد ذلك". وانتهت هذه المحادثة المتواضعة بيننا.

كررتُ أسلوبي في متابعة صفحة الشاب دون أية نية تجاهه سوى حرصي على متابعة أخبار الأحداث في حلب، فراسلني مرة أخرى، تحدثنا مطولاً هذه المرة، واكتشفنا أن بيننا معارف كثر، كان يعمل في جمعية للتعليم ومحو الأمية في حلب، وأنا كنت مقربة من مديرة الجمعية التي كانت تأتي في زيارات متفرقة إلى مركز المهارات الذي كنت أعمل به. قال لي الشاب بشكل مباشر، إنه يبحث عن فتاة لخطبتها، وأنني أعجبه.

كنت في الـ٢٣ والعشرين من عمري حينها، لكنني تلقيت طلبات للخطبة والزواج منذ أن بلغت سن الـ١٤، وهي طلبات كانت دائماً ما تسبب التوتر لوالدي. وعندما دخلت إلى الجامعة، أصبحت راغبة بالزواج، دون أن يوافق والدي على أحد من الشبان الذين كانوا يتقدمون لخطبتي.. واحد منهم بمواصفات كاملة، لكن أبي اعتبر أن عمره صغير لأنه كان يكبرني بثلاث سنوات. رفض آخر لأن هيئته لم تعجبه، وآخر لأنه ليس من حلب، وآخرين لأسباب كنت أعتبرها غير منطقية.

لذا، عندما فاتحني الشاب بموضوع الزواج، جزمت فوراً بأن والدي لن يوافق، كان الشاب من إدلب، وما يزال يدرس في الجامعة. أخضعتُه سريعاً في ذهني لاختبارات

والدي، ففشل بمعظمها، فشله الأكبر كان يتمثل بأنه من نفس عمري.

شعرت بالخجل لرفضه بشكل مباشر، فضلت أن يأتيه الرد من والدي. اتفقنا أن يأتي مع عائلته ويتقدم رسمياً لخطبتي، وحينها خفت من والدي وجملته المعتادة: "مافي نصيب".

كان الشاب قد ترك عمله السابق، وينتظر الموافقة على عمل جديد تقدم له، قال لي إنه سيأتي عندما تأتيه الموافقة.

بدأت أبحث في ملفه الشخصي على "فيسبوك". أعجبني في الصور، وجدته شاباً وسيماً. وبقينا في تلك الفترة على تواصل، دون أن أخبر أحداً بالقصة.

كنا ما نزال نسكن في مناطق سيطرة النظام، بينما يسكن الشاب في المناطق المحررة من حلب. قال لي مرة إننا قد نضطر أنا وعائلتي للذهاب إلى المحرر، من أجل أن يتقدم لخطبتي.. أضاف الشاب سبباً جديداً لرفضه من قبل والدي الذي لن يوافق قطعاً على الذهاب إلى منزل أحد من أجل أن يزوجني إياه!. لكن الشاب كان يعجبني أكثر فأكثر مع مرور الوقت، بدت أفكارنا متقاربة، وأننا على وفاق في كثير من آرائنا ونظرتنا إلى الحياة. شعرت من خلال نقاشاتنا وأحاديثنا أن هدفه لم يكن الزواج فقط، بل تكوين عائلة متماسكة وإنجاب أولاد وتربيتهم بشكل جيد. وصلنا إلى مرحلة أخبرني فيها بالأسماء التي يريد منحها لأبنائه؛ عمرو وزيد وقيس. أعجبني كل شيء به، حتى الأسماء التي اختارها للأولاد، فأنا أيضاً لم تكن تعجبني الأسماء العصرية التي بدأ الناس يطلقونها على أولادهم، مثل جاد أو تيم.

اقتنعت بقلبي وعقلي أنه شخص أستطيع إكمال حياتي معه. وأذكر أنه في أول مكالمة له معي عبر الهاتف قد جذبني صوته جداً حتى أنني أغمضت عيني لأركز في صوته الجميل وأخبرته أنني أتوقع أن صوته سيكون جميل جداُ إذا غنى وسألته هل سبق

وغنى ، أجابني : لا وسألني إن كنت جادة فعلاً برأيي بصوته، أكدت له أن صوته فعلاً رائع.

خطر لي مرة أن أقابله، اتصلت به فجأة وأخبرته أنني قريبة من منطقة الجميلية القريبة من مكان إقامته، كان مصدوماً لطلبي، لكنه قال لي أن أوافيه إلى كافيتيريا في منطقة بستان القصر، وهي منطقة لم أكن قد ذهبت لوحدي إليها قبلاً، ولا أعرف كيفية الوصول إليها، أعرف فقط أن هنالك قناصاً يرصد شارعاً في الطريق إليها. إلى جانب أنه لم يكن حينها مسموحاً بلقاء شاب وفتاة وتجولهما في شوارع تلك المنطقة، بسبب وجود عناصر من جبهة النصرة فيها.

لم أعرف يومها كيف حلَّت بي تلك الشجاعة لمقابلته رغم كل تلك الصعوبات التي كانت تنتظرني.

أخبرت أختي أنني سأكون في تلك المنطقة، حتى يعرف أهلي بمكاني في حال حدث لي أي مكروه. وانطلقت نحو مكان موعدنا.

وقف أمامي فجأة، كان يبدو نحيلاً وخجولاً.. ولون عينيه قريب إلى اللون الفيرزوي في ضوء الشمس، أما في الظل، فكانتا بلون لم أعرف كيف أصفه حينها.

عندما عدت إلى المنزل، أرسل لي رسالة يبشرني فيها بأنه قد تم قبوله في العمل كمراسل في موقع

"العربي"، وأننا سننتظر شهراً حتى يتسلم أول راتب له ويتقدم لي. أكملنا تعارفنا خلال ذاك الشهر على تطبيق الماسنجر، دون أن أتجرأ مرة أخرى على الذهاب ومقابلته.

مر الشهر، وتسلّم راتبه الأول من عمله الجديد، وأخبرني أنه سيتحدث مع والديه

من أجل أن يتقدم لخطبتي، وفي مساء ذات اليوم، أخبرت جارة لنا والدتي بأن هنالك عائلة أخرى تريد رؤيتي من أجل خطبتي!.

كانت الكهرباء مقطوعة، والموقف مزعج جداً.. كل أفكاري كانت مع الشاب الذي يعجبني، مع الذي أريد الزواج به حقاً، لكنني لم أستطع قول أو فعل شيء، عندما بدأت العائلتان تخوضان بتفاصيل الخطبة والمهر والزواج بشكل رسمي.

أخبرت الشاب بما حدث، لم يكن لدي حل آخر سوى أن أخبر والدتي بقصتنا، لكن بمجرد معرفتها، كان يجب على والدة الشاب الاتصال مباشرة. وعدني بأن أمه ستتصل بعد ساعة.

أخبرت والدتي بما حدث، غيرت القليل من الحقائق من أجل أن أخفف من غضبها علي، لكن ذلك لم يمنعها من الصراخ والتأنيب والاتهام بقلة الأدب ووصف تصرفاتي بأنها منعدمة الحياء، لم تتوقع أنني قد أتحدث مع شاب لا يربطني به أي شيء رسمي.. ندمت لأنني أخبرتها.

رن جرس الهاتف، تحدثت والدة الشاب مع أمي، ويبدو أنها كانت مثقفة ولبقة الحديث، وهذا ما كان سبب استرخاء والدتي، وموافقتها على استقبالها بعد يومين.

نظفت المنزل، وأحضرت لوحات من مكتب والدي وعلقتها على الجدران.

جاءت عمة الشاب وأمه وكنتها إلى منزلنا، بينما ذهب والد الشاب إلى مكتب والدي. طلبتني الأم لابنها دون مقدمات، ثم سألتني عن دراستي وعملي، ثم عن المهر الذي تطلبه أمي، قالت والدتي إن ٣٠٠ ألف ليرة سورية هو مبلغ مناسب، وفي الجانب الآخر، في المكتب، كان والدي قد طلب من والد الشاب مبلغ ٥٠٠ ألف ليرة.

اجتمع والداي بعد انتهاء الزيارة، وظهر سوء التفاهم في طلب المهر. أخبرتهما أنني

معجبة بالشاب وعائلته، حاولت وضع حجج إيجابية من أجل أن يوافقا.. وبدا لي أنهما لن يعارضا الزواج. وعندما اتصلت والدة الشاب لتعرف ردَّنا، كان الجواب بالموافقة، اتفقت العائلتان على مبلغ ٤٠٠ ألف ليرة كمهر مقدم ومثله كمؤخر. وعلى أن حفل الخطوبة سيكون غداً، في منزل عمتي بالمحرر.

وصلنا في الثامنة والنصف صباحاً، كنت قد ارتديت فستاناً بلون فيرزوي. بدأنا نحن الفتيات بالتحضيرات، بينما ذهب والدي لشراء الحلويات والفاكهة في انتظار عائلة أحمد التي كانت من المفترض أن تأتي في الساعة الثانية ظهراً.

كنت قد أخبرت أحمد مرة، أن ارتداء الشبان بنطالاً من الجينز مع قميص أبيض وفوقه سترة سوداء، يعجبني كثيراً. ظهر أحمد في يوم خطبتنا مرتدياً هذه الثياب. وصفف شعره بشكل مرتب.. كان لبقاً في حديثه، ومبتسماً طوال الوقت.. وأنا، كنت أشعر بفرح غامر.

قرأت العائلتان الفاتحة، لكن عمتي استغربت موافقة والدي على أحمد، لأن "كثيراً من الشبان الذين تقدموا لخطبتي سابقاً ورفضهم والدي بكل بساطة". أجابها والدي: "لا أعرف حتى اللحظة ما الذي جعلني أوافق!".

مشت النسوة أمامنا في طريقنا لشراء خواتم الخطبة، بينما بقي الرجال في المنزل، كان والدي قد قال لأحمد إنه حر في شراء ما يريد من الذهب، وتقديم ما يشاء من الثياب، لم يكن يريد أن يحمله فوق طاقته المادية.

تبادلنا المحابس نهاراً، تخفي الظلال التي تحجب ضوء الشمس قليلاً من ملامحنا المرتبكة ونحن نمسك بأيدي بعضنا البعض للمرة الأولى، لكن الارتباك كان موثقاً في الصور التي التقطت لنا حينها.

شاء الحظ أن يغلق معبر بستان القصر المؤدي إلى منزلنا في منطقة سيطرة النظام

لـ١٢ يوماً للمرة الأولى حينذاك. بقينا في المحرر، والتقيت بأحمد ثلاث مرات، اقترح علي خلالها أن نكتب الكتاب بشكل رسمي، وهذا ما حدث، مخالفين عادات عائلتينا بعدم كتب الكتاب إلا قبل الزفاف بأيام قليلة، منعاً لأن أصبح في عداد المطلقات، إن تم فسخ الخطوبة قبل الزواج. لكن كل شيء بدا سهلاً.. موافقة والدي على أحمد، السرعة في الخطوبة ثم كتب الكتاب، تلاشت معظم الصعوبات والمعوقات التي كنت أخشاها، وكأن كل قرار كنا نرغب بالتقدم من خلاله نحو العيش سوية كزوجين، كان يسيرَ التحقق وسهل التنفيذ.

كان يوم جمعة، المحال مغلقة، ولم أتمكن من إيجاد مصففة شعر. استعرت فستاناً من ابنة عمتي، التي زيَّنتني أيضاً وصفَّفت لي شعري مستعينة بأداة حفر الكوسا بعد تسخينها، بسبب انقطاع الكهرباء.

ذهبنا إلى المحكمة الشرعية في حلب، استوقف أحمد الشيخ قبل أن يبدأ بكتابة عقد الزواج، وطلب من والدي أن يكتب ما يشاء من المهر، لكن والدي رفض التغيير، واستقر على المبلغ الذي اتفقوا عليه سابقاً.

عدنا إلى منزل عمتي، حيث سنقيم حفلاً رائعاً بمناسبة كتب الكتاب. تضافرت الجهود من أجل إنجاح الحفل ضمن المعطيات البسيطة التي نمتلكها. أمّن لنا زوج ابنة عمتي مولدة كهرباء لتشغيل الأضواء، وهناك من أحضر حاسوباً من أجل تشغيل الأغاني، رقصنا أنا وأحمد، واحتفت بنا عمتي وبناتها ووالدتي وأخواتي.

فتح معبر بستان القصر، سافر والد أحمد ووالدته إلى تركيا حيث يقيمان، وعدنا نحن إلى منزلنا. ثم قضيت الفترة اللاحقة أذهب إلى منزل عمتي كل أسبوع من أجل أن أرى أحمد، قبل أن يدخل عناصر تنظيم داعش بشكل غير متوقع إلى عدد من مناطق حلب. وتبدأ حملاتهم باعتقال الصحفيين والناشطين في المناطق المحررة.

وبعد أن اعتقلت داعش أصدقاء لأحمد، قرر الانتقال إلى إدلب.

كنا قد خططنا للزواج بعد ثلاثة أشهر من الخطبة، بدا لي أن الأمور أصبحت تسير ببطء، بدخول داعش، وتغيير أحمد مكان إقامته، إلى جانب عدم وجود بصيص أمل بسقوط النظام قريباً، فلم يكن أمامنا من خيار سوى التخطيط للسفر والاستقرار مؤقتاً في تركيا. سبقني أحمد إلى غازي عنتاب من أجل البدء في تجهيز المنزل الذي سنسكن فيه.

كان تاريخ الـ٢٥ من شهر آذار من العام ٢٠١٤، عندما خرجت من حلب، متوجهة إلى الحدود السورية التركية. ولأن مكتب الحجوزات في منطقة بستان القصر كان مغلقاً حينها، لم يكن أمامنا أنا ووالدي ووالدتي سوى أن نتوجه نحو المناطق المحررة في حلب، ثم حماة، فحمص، فإدلب، فحلب مرة أخرى ولكن للمناطق المحررة ثم إلى الحدود السورية التركية. لكن هذا الطريق سيستغرق نهاراً كاملاً، وهذا يعني أننا إن بدأنا رحلتنا في الصباح الباكر، فسوف نصل إلى الحدود ليلاً، وسيكون المعبر مغلقاً.

تغيرت الخطة، سنذهب إلى منزل عمتي في المحرر في باص، ثم في اليوم التالي نحو الحدود. وهذا ما حصل، حزمت حقائبي المليئة بالثياب والزجاج والأغطية والمكياج. ولأن والدي كان مصاباً بمرض الديسك، فكان يتوجب علي أن أتولى مهمة حمل ونقل الحقائب.

مررنا بداية بحواجز النظام، دون أن نتجرأ على التصريح أمام عناصرها بأننا ذاهبون إلى المحرر، قلنا لهم إن دمشق هي وجهتنا. وبعد عدة حواجز، كان يجب أن نخبرهم بأننا متجهون إلى حمص. لكن المرور لدى آخر حاجز قبل الوصول إلى المناطق المحررة كان الأصعب، حيث سيدقق العناصر بهويات جميع الركاب، وسيخرجون

كل ما بداخل الحقائب من أجل التفتيش، ويمطروننا بالأسئلة عن سبب ذهابنا إلى المناطق المحررة مع كل هذه الأمتعة.

وصلنا إلى منزل عمتي مساء، نام والداي بسبب التعب، أما أنا فلم أستطع إغماض عيني. كانت المرة الأولى التي أسافر فيها خارج سوريا.

في السابعة صباحاً كنا قرب معبر باب السلامة، الجو ربيعي، الازدحام كبير، والطريق طويل.. ربما ساهمَت أغراضي الكثيرة في جعل الطريق أطول. بدأت بنقل حقائبي العشرة نحو المعبر، تقف أمي قرب الحقائب، أحمل اثنتين منهما وأوصلهما إلى نقطة وقوف والدي الذي ينتظرني بعيداً بعشرات الأمتار، ثم أعود وأحمل اثنتين.. وهكذا.

في تلك الفترة كان الدخول إلى تركيا يتطلب امتلاك المسافر جواز سفر فقط، دخلنا بسهولة إلى الجهة الأخرى من الحدود، واستقلينا سيارة أجرة تذهب بنا إلى غازي عنتاب.

وقفنا ننتظر زوجي في منطقة الجامعة، تأخر حوالي ساعة حتى أتى ليصطحبنا إلى المنزل، غضب والدي كثيراً من تأخره، بينما وقفت والدتي بصمت ممسكة سبحتها، تردد في سرها أذكاراً وأدعية لي بالتوفيق والستر والسعادة في زواجي.

عندما أتى أحمد، كان يبدو وكأنه عائد من حرب طاحنة، بملامح متعبة وسعيدة في الوقت ذاته، يرتدي بنطالاً عليه آثار غبار، وكنزة صوفية مهترئة، بشعر غير مصفف، وذقن غير محلوقة، ويحمل بيديه الاثنتين أكياساً مليئة بالحاجيات.

وصلنا إلى المنزل، كانت منطقته جميلة وهادئة، والأثاث في داخله أنيق، ووالدا أحمد ينتظراننا فيه.

كان من المفترض أن نستريح من عناء الطريق حسب رغبة حماتي، في الوقت الذي

يكملون هم فيه ترتيب المنزل وتجهيز الطعام. أحمد كان يتنقل بين غرف المنزل والمطبخ مسرعاً ومرتبكاً. نصحتني والدتي بمساعدته، فهذا منزلي وعلي أن أتصرف على هذا الأساس.

نزعت حجابي، وتنفست بعمق، وأعددت نفسي لأبدأ رحلتي الجديدة، في منزلي، ومع زوجي.

في المطبخ كان أحمد يفتح علباً وكراتين ويغلق أخرى، ما يزال مرتبكاً ويحاول الإسراع بإنجاز الأعمال. ساعدته بالترتيب ووضع الفطائر في الصحون. كان قد نسي أن يشتري كؤوساً للشاي، لكنني أحضرت في حقائبي فناجين قهوة وشاي. حضّرنا سوية إفطاراً كان الأشهى، وقبل أن ننتهي من تناوله، كانت عمة أحمد قد وصلت إلى منزلنا من أجل أن تبارك زواجنا. وبعد ذهابها، تركَنا والداي ووالداه لإكمال تنظيف المنزل، الذي استغرق منا خمس ساعات متواصلة. انتهت تلك الساعات الخمس بقدوم شقيق أحمد وزوجته لزيارتنا أيضاً.

كنت متعبة جداً، حتى إنني لم أكن أرغب في شيء حينها سوى بارتداء "بيجامة" مريحة وعليها رسمات طفولية، وأستريح قليلاً.

في صباح اليوم التالي، سافر والداي إلى مرسين ليزورا صديقاً لوالدي. وفي الأيام التالية كان يحاول أحمد مراعاتي واستيعابي كثيراً، كفتاة أصبحت فجأة وحيدة، وخارج بلدها، ودون عائلتها. ذهبنا للتسوق وشراء ما يلزمنا، علّمني حروف اللغة التركية المكتوبة على واجهات المحلات. وبعد خمسة أيام عاد والدي من مرسين، وأبلغتني أمي بأنها ووالدي سيعودان إلى حلب.. شعرت بخوف شديد، وكأنني لم أكن أتوقع عودتهما، كيف لهما بأن يتركانني وحيدة مع الرجل؟ تساءلت عن السبب الذي جعلني أسافر إلى تركيا.. كنت أحب زوجي وكان عمري حينها ٢٣ عاماً، لكنني

أحسست وكأنني طفلة ضائعة.

بكيت كثيراً في كراج المسافرين في غازي عنتاب، حيث ودعت والديّ.

على اعتبار أن أحمد كان مسؤولاً في عمله عن تغطية الأخبار والأحداث في سوريا، كنا قد اتفقنا على أن يمضي معي شهراً في تركيا، ويسافر ١٠ أيام إلى إدلب من أجل متابعة عمله. لكن مع مرور الأشهر، أصبح يمضي معي عشرة أيام، ويبقى شهراً في سوريا. بدأت أشعر بالوحشة والضيق، وأشتاق لمنزل عائلتي في حلب، الذي كان دوماً مليئاً بالقصص والحكايا والناس، وخاصة أنه في الفترة التي سبقت زواجي، لم يخلو من النازحين الهاربين من قصف النظام على مناطقهم.

أنا زوجة أصغر أولاد حماتي، وهي لم تكن تفضل التعمق في العلاقة مع الكنَّات، فلم تربطنا علاقة قوية ولم نزر بعضنا كثيراً خلال أيام الأسبوع الواحد. في الشهر الذي كان يغيب فيه أحمد، كنت كمن يتجمد في مكانه، لا أمارس أية نشاطات، لا أزور أحداً، لا أرى سوى البقال الذي صار يجهز لي ورقة وقلماً عندما يراني آتية إلى محله، أرسم له الأغراض التي أحتاجها، لأنني لم أكن قد تعلمت التحدث باللغة التركية بعد.

بعد ذلك، بدأت أشعر بالخوف والخطر، ففي بنايتنا، مقابل منزلي تماماً، كان هنالك امرأة بسمعة ليست جيدة، تستقبل الرجال في منزلها، يخطئ أولئك الرجال في كثير من المرات ويطرقون باب منزلي أنا، وأحياناً تأتي الشرطة وتداهم منزلها، وأعيش لوحدي أوقاتاً مرعبة، دون أن يأتي أحد من عائلتي لزيارتي في تركيا سوى مرة واحدة، قضوا خلالها ستة أيام فقط.

بقيت عاماً كاملاً على هذه الحال، وعندما لم أعد أستطيع التحمل أكثر، قررت العودة إلى سوريا، في هذا الوقت، كنت حاملاً بابني الأول.

رفض زوجي عودتي في البداية، لكنه وافق مع إصراري على الأمر. قال إنني أستطيع

مرافقته والاستقرار في قرية عقربات، وهي قرية صغيرة وجميلة قرب بلدة أطمة. بعد إقناع زوجي، كان يجب علينا إقناع والده بأن قرارنا بالعودة سوية هو الصواب. أنا ببساطة، كنت أطالب بحقي في العيش كل الأيام قرب زوجي.

في عقربات، شعرت أنني عروس من جديد، كان شعوراً متأخراً لكن حقيقياً، أرى أحمد كل يوم خارجاً من المنزل وعائداً إليه، دون أن أقلق من يوم وداعه وتركه لي. صار لي صديقات ومعارف، وعشت حياة طبيعية هادئة. لكن طرق التهريب إلى تركيا صارت أصعب حينها، ولم يعد أحمد يستطيع زيارة أهله دون امتلاك جواز سفر.

بقينا في عقربات حوالي عاماً. وفي نهاية سنة ٢٠١٥، اقترح زوجي أن نزور تركيا مؤقتاً، فقد كان يريد أن يستخرج جواز السفر من اسطنبول، وأنا سأنتظره في منزل عائلته في غازي عنتاب.

حزمت أمتعة تكفينا أنا وأحمد وطفلنا في حقيبة واحدة، وسافرنا. بقينا في منزل العائلة أياماً، ثم عاد زوجي من اسطنبول. وخلال تلك الأيام، وردت له أخبار عن تعرض شخص يعمل معه للتهديد من قبل جبهة النصرة، بتهمة أنهم "إعلاميون يتسببون بكشف خطط واستراتيجيات" النصرة. وهذا ما كان يشكل خطراً بالغاً في حال عودتنا إلى سوريا، حيث منزلي، أغراضي، عالمي، عائلتي، كل شيء. لكن التفكير بالعودة كان مغامرة تعرض حياة زوجي للخطر. ما كان يهمني حينها فقط، هو أن يبقى زوجي بخير.

انتقلنا إلى منزل لوحدنا، وبعد فترة قصيرة خسر زوجي عمله.

مر عامان دون أن يجد أحمد عملاً بديلاً، حملتُ بابني الثاني، باع زوجي سيارته من أجل أن يؤمن مصروف طعامنا وشرابنا، استهلكنا أيضاً النقود التي كنا قد ادخرناها.

ضاقت علينا الأحوال كثيراً، واستبدلنا منزلنا بآخر أقل تكلفة. قبل أن يعود أحمد للعمل مع قناة "حلب اليوم".

أنجبتُ ابني الثاني، ثم ولديَّ التوأم، صار عندي أربعة أطفال بأعمار متقاربة. وترك أحمد عمله.

ازدادت المهام التي يجب علي إنجازها يومياً، فلم أتمكن من الحصول على النوم الكافي ليلاً ولا نهاراً.. أصابتني حالات تشتت ذهني وانعدام في التركيز، حتى إن أتى واحد من أولادي ليوقظني ليلاً، لا أميزه، أستيقظ ولا أتعرف على زوجي، أسأله فجأة: "من هؤلاء!"، يقول لي مرتبكاً "أولادنا!". أسأل نفسي "متى أنجبتهم"!. كنت أنسى أولادي في المدرسة، ولا أتذكر أنني يجب أن أذهب لاصطحابهم إلى المنزل. تصيبني أعراض تشنج في المعدة وارتجاف وضيق في التنفس، إن عاد إلى ذاكرتي فجأة تفصيل صغير من يوم قصف الجامعة، أشعر بآلام في جسدي، وأشعر وكأنه حدث البارحة.

يرافقني الشعور بالخوف من المجهول خلال النهار، والهواجس والكوابيس في أحلامي خلال الليل. وبسبب إرضاع ابنيَّ التوأم، أصبت بمرض الديسك في رقبتي، واعتقدت أنني لن أشفى منه طوال حياتي.

على الرغم من أن زوجي كان دائماً ما يحاول تشجيعي على العودة للرسم، إلا أنني لم أكن أستطيع الوقوف أمام لوحة بيضاء لأضرب خطاً واحداً عليها، شعرت أن حياتي عبارة عن فوضى، وألا وقت لدي لمثل تلك الأحلام البالية في أن أصبح رسامة محترفة. أستيقظ ليلاً ولا أستطيع معاودة النوم، أتذكر أمي عندما كانت تبقى مستيقظة ليال متواصلة ثم تبدأ بالهلوسة، والتحدث عن مواضيع غير مترابطة وغير مفهومة، خشيت من أن أكون قد ورثت عنها مرضها النفسي، وأن أعراضه قد بدأت تظهر علي. فكان علي أن أبحث عن طريقة أبدأ فيها بالعلاج باكراً، قبل الوصول إلى مرحلة

اللا عودة.

شعوري بالغربة بعيدة عن عائلتي قاس جداً.. إخوتي أيضاً في لبنان دون أوراق رسمية، ولا يستطيعون العودة إلى سوريا. صرنا مشلولين وغير قادرين على التحكم بمصائرنا. زوجي يريد إكمال دراسته، لكنه مطلوب في سوريا، ولا يستطيع استخراج الأوراق اللازمة، حياتنا متوقفة، وأجنحتنا متكسرة.

ازداد ثقل الحمل على كاهل أحمد، وبدأ يضطر إلى الاستدانة من أصدقائه، أصبح وضعنا المادي والنفسي تعيساً جداً، فلم نقدر على تأمين الحليب والمستلزمات لأطفالنا، ناهيك عن إيجار المنزل والفواتير. حتى زارنا مرة صديق لزوجي، أخبره بأن أي شخص تنطبق عليه شروط تلقي المعونة فيجب عليه أن يأخذها. وهذا ما أقنعه.

عندما تخرجت أختي من الجامعة في حلب، أقنعتُ عائلتي في أن يسمحوا لها بالسفر إلى تركيا لإكمال دراستها والبقاء في منزلي، بدلاً من أن تعيش وحدها في دمشق من أجل دراسة الماجستير. كنت بحاجة لأحد يؤنسني ويمنحني الدفء، بحاجة لأي أحد من عائلتي، وبحاجة لمساعدة في الاعتناء بالأطفال والمنزل.

تلقى زوجي راتباً متواضعاً مقابل عمله كمتطوع في إحدى المنظمات، يكفينا الراتب إلى جانب المعونة من الهلال الأحمر حاجاتنا الأساسية، ويبعد عنا شبح الاستدانة من أحد. شدت أختي نور من أزري وخففت معاناتي وساعدتني في مواجهة الغربة. لكن الركيزة الأهم التي استطعت أخيراً الاستناد عليها عندما كنت مثقلة بالهموم والمخاوف في أحلك أوقاتي، كان مركز "العائلة".

كانت الجلسات التي داومت على حضورها في المركز، هي أجمل ما عشته خلال سنوات إقامتي في غازي عنتاب، اكتشفت ما لم يخطر ببالي يوماً مرة أنه موجود في هذه الحياة. فهمتُ معنى أن أتفهم حاجات نفسي وجسدي، صرت أعرف كيف

أعتني بنفسي جيداً عندما أكون متعبة، وأعي لانعكاس مشاعري على جسدي، وأن ما يحدث من أعراض الارتجاف والتشنج هي أشياء يجب الانتباه لها وعدم تجاهلها، في حين لم أكن أنتبه لتلك الأعراض أو ألقي لها بالاً في السابق، رغم أنها كانت تحدث لي مراراً.

مع مرور الوقت، أخرجت في الجلسات معظم ما كان في داخلي من هواجس، تفهمت مشاكل والديّ، والضغوط والمعاناة التي كانا يتعرضان لها كل منهما.

بعد جلسات العلاج النفسي في مركز "العائلة"، أصبحت أتمكن من استعادة أحداث يوم قصف الجامعة دون أن أبكي أو أصاب بالاكتئاب. صرت أقوى بكثير من ذي قبل. انكسر حاجز الخوف في داخلي، وتخلصت من الجدران التي قبعت في صدري لسنوات.. اتخذت قراراً بأنني سأعتبر ذاك اليوم ذهب دون عودة.

أما جلسات العلاج الطبيعي، فقد كان لها الأثر السحري على صحتي.. عدت يوماً من جلسة استرخاء إلى المنزل، وعندما كنت في نهاية صلاتي، حركت رقبتي جانباً من أجل التسليم، فلم أشعر بأي ألم فيها. كانت مفاجأة لم أتوقعها.. شفيت من مرض الديسك. وبعد ذلك صرت أصلي جميع صلواتي بذهن صاف، لم أكن فقط أقرأ الآيات، بل أشعر بها، أحس بخشوع غريب، وكأنني في كل مرة أصلي للمرة الأولى.

استعدت ذكرياتي في الأوقات التي كنت أقضيها وأنا طفلة في مرسم والدي، حين كنت ما أزال أخربش على لوحاته.. عشت تلك اللحظات من جديد، وعدت للرسم فرحة كطفلة تكتشف موهبتها، وتتعلم رسم الخطوط لأول مرة. صرت أرسم الآن لوحات وأهديها لجاراتي وصديقاتي، أتلقى طلبات لوحات بمقابل مادي، يساعدنا قليلاً في دعم راتب زوجي. وفي الوقت ذاته، أحلم بأن أقدم دورات لتعليم رسم، وأن أطور نفسي في مجال الرسم التصويري، وأن يكون لدي مرسمي الخاص بي، وأن أحجز

لنفسي اسماً ومكاناً هاماً في عالم الرسم.

ما أتمناه اليوم، هو أن تحصل والدتي على مثل هذه المساعدة، أرغب لو كان باستطاعتي أن أخفف عنها فترات الانتكاسات التي تتعرض لها بين حين وآخر، وأن أكون حاضرة من أجل مساعدتها في تقديم النصائح وتنفيذ ما تعلمته خلال جلسات العلاج، وعلى الالتزام بتناول أدويتها بانتظام. خاصة وأننا كنا نحاول طيلة السنوات السابقة فهم ماهية وطبيعة مرضها، غير أن عائلتي لم تعرف اسم مرضها حتى سنوات قليلة سابقة، وهو ثنائي القطب كما شخصه أحد الأطباء في سوريا.

أتمنى أيضاً، أن يتحقق معنى العدالة حين يخضع بشار الأسد للمحاكمة، ويلقى كل ظالم عقابه الذي يستحق. ويسترد كل مظلوم حقه.. حينها فقط، نستطيع تحقيق حلم العودة إلى سوريا الحرة.

رابطة معتقلي ومفقودي سجن صيدنايا
Association of Detainees & The Missing in Sednaya Prison